(٨)

السيدة جويرية بنت الحارث رضى الله عنها

العامان الرابع والخامس الهجريان كانا حافلين بالأحداث والوقائع الجسام فى المدينة وما حولها، وطمع الطامعون فى توجيه ضربات يرجون منها قصم ظهر الدولة الإسلامية الناشئة، تلك الدولة التى قامت للقضاء على قوى الباطل ومعاقل الشرك والوثنية.

فكانت غزوة الأحزاب نافرة من وسط الجزيرة إلى شمالها لتدك صرح الإسلام فى المدينة.

وكان تخاذل المنافقين وانفلاتهم من جيش الدفاع عن المدينة الذى خرج لملاقاة العدو قبل الاقتحام، وأحدثوا بذلك شروخاً فى بناء القوة التى خرجت للدفاع عن الحرمات، وكان مكر اليهود فى المدينة ومحاولتهم نصرة قريش على المسلمين ناقضين العهد المبرم بينهم وبين النبى ﷺ الذى عقده بعد قدومه إلى المدينة ورعاه المسلمون حق الرعاية، ولكن يد الله كانت مع النبى وصحبه، فزلزل الله الأرض تحت أقدام قريش وحلفائها، وهزمهم شر هزيمة.

OBEIKAN.COM

ثم التفت المسلمون نحو يهود «الخيانة» وحاصروهم فى حصونهم حتى اضطروا للتسليم ومغادرة المدينة.

وما كاد العرق يجف والسيوف تغمد حتى وردت الأخبار للنبى بأن بنى المصطلق كوَّنوا جيشاً وهم فى الطريق إلى المدينة لمحاربة النبى والمسلمين، فجهز رسول الله ﷺ جيشاً قوياً لملاقاتهم، وهزم المسلمون بنى المصطلق، وأسروا منهم ما أسروا، وجبوا من الغنائم ما جبوا، وتلاحقت بشريات النصر على النبى وصحبه، ورفرفت رايات الانتصار تهتف بحمد الله على ما وهبهم من النصر والتأييد.

وكان ممن وقع فى الأسر من نساء بنى المصطلق ابنة سيد بنى المصطلق (الأميرة): برة بنت الحارث بن أبى ضرار، وقعت فى سهم ثابت بن قيس، فكاتبته على نفسها ليطلق سراحها وتعود حرة كما كانت[1].

هذه مخاطرة أقدمت عليها برة، ولم تكن تملك قيمة الفدية التى تعهدت ببذلها لسيدها، إنها غريبة فى بلد غير بلدها فماذا تَفْعَلُ؟

هداها تفكيرها إلى أن تذهب إلى نبى الرحمة، ولم يمنعها

---

(١) كاتبته: أى تعهدت له بدفع فدية من المال تدفعه له فى نظير إخلاء سبيلها وعتقها من الأسر، والمكاتبة أو الفداء إحدى الطرق المشروعة فى فكاك الأسرى.

OBEIKAN.COM

عداء قومها للنبى والخروج لمحاربته أن تقصده وترجو منه أن يزيل كربها، فتوجهت إليه وهو فى غرفة عائشة أم المؤمنين، واستأذنت فى الدخول عليه، وكلها أمل أن نبى الرحمة سيزيل ما بها من كروب.

قالت له بعد أن قصت عليه قصتها: جئتُك استعينك على أمرى.

فرق لها قلبه الرحيم، وتحركت فى نفسه مشاعر العطف والمواساة، وإزالة عثرات ذوى المروءات من الناس، فقال لها رسول الله ﷺ: «هل لك فى (ما هو) خير من ذلك»؟

قالت: وما هو؟

قال: «أقضى عنك الفدية وأتزوجك».

قالت: وهى تكاد تطير من الفرح والسرور: «نعم يا رسول الله».

ثم قدم أبوها سيد قومه بنى المصطلق، وعرض على النبى ﷺ أن يدفع فديتها وتذهب ابنته معه، فقال ﷺ: «أرأيت إن خيَّرتها أليس قد أحسنت»، قال أبوها: بلى - يعنى قد أحسنت - فسألها أبوها فقالت: «اخترت الله ورسوله».

إنها سارعت إلى إعلان إسلامها فور أن تعهد لها رسول الله ﷺ بدفع فديتها.

OBEIKAN.COM

وها هى ذى تكرر إعلان إسلامها فى حضور أبيها أمير بنى المصطلق، ثم تتوالى المفاجآت السارة:

* فهذا أبوها لم يلبث أن يعلن إسلامه فقال يخاطب رسول الله ﷺ: «أشهد أنك رسول الله حقًا».

* ثم يسرى خبر زواج النبى ﷺ من الأميرة ابنة أمير أو ملك بنى المصطلق، فيسارع المسلمون إلى عتق كل أسرى بنى المصطلق؛ لأنهم أصبحوا أصهار رسول الله ﷺ، وقد عمت الفرحة مائة بيت فى بنى المصطلق ينتمى الأسرى إليها.

* ويعود الأسرى إلى موطنهم ويسرى الخبر فى بيوت بنى المصطلق فيدخلون فى الإسلام جميعاً، بعد أن سحرتهم سماحة وأخلاق الرسول الكريم وأصحابه الأبرار، ولذلك عُدَّت برة أعظم النساء بركة على قومها، وكفى أنهم اعتنقوا الإسلام جميعاً بسببها.

وغيَّر النبى اسمها من برة إلى «جويرية» وعرفت بهذا الاسم الجديد، ونسى الناس اسمها الأول «برة» إلا كتاب السيرة حين يقصون قصتها.

هذه هى قصة زواجه ﷺ من جويرية بنت الحارث سيد بنى المصطلق، والقارئ الكريم يستطيع - بكل وضوح - أن يستخرج من وقائع القصة السبب النبيل الذى حمل محمداً على التزوج من

جويرية - رضى الله عنهـا. إنه الرحمة والمواساة، وإقـالة عثرات ذوى المروءات وأن مـا ترتب على هـذا الزواج من دخـول بنى المصطلق جميـعاً فى الإسلام ليدفع بكل قوة وحسم تلك الـتهمة التى تمالأ خصوم الإسـلام على إلصاقها بصـاحب الرسالة الخاتمة من أنه ما توسَّع من دائرة التزوج بالنساء إلا لفرط ميوله إلى إشباع شهوته الجنسـية؟ فما أبعد سـيرته الطاهرة عن هذا «الوحل» الذى يحاول هؤلاء الكارهون لما أنزل الله أن يلطخـوا به سيرته العطرة، وهم فى هذه المزاعم يمدحونه من حيث أرادوا أن يذموه، فهب أن محمـداً ﷺ كان ذا ميول عارمـة للمعاشرة الزوجيـة، فكفاه نبلاً وشرفاً وطهارة أنه سلك فى إشباعها مسلك الزواج الحلال العفيف النظيف.

وهم حين يروجـون عنه هذه الأباطيل يعـيشـون فى بيئـات لا تعرف للعفـة والطهارة طريقاً، وإنما تعرف إشـباع هذه الغرائز عن طريق المخادنة، أو تحت غطاء الحرية الشخـصية مع تفشى الدعارة فى مدارسهم ومـعاهدهم حتى بين الناشئين والـناشئات، والأبناء غير الشرعيين فى مجتمـعاتهم تفوق نسبتهم فى بعض الدول نسبة الأبناء الشرعيين؟

* * *